

على هامس رماني الى الجوار

ليلة في مكة

بقلم الدكتور عبد الكريم جرمانوس
أستاذ التاريخ الشرقي بجامعة بودابست

أخذ النسق يهبط بسرعة في وادي مكة الضيق، المشبع بهواء الصحراء الجاف؛ وهنا بدأت خيوط الأصيل الذهبية تتلاشى ثم تختفي دفعة واحدة كأن ستاراً أسدل عليها بغتة؛ وبعد فترة وجيزة أخذ الليل ينشر خيمته السوداء فنسينا حينذاك ذكريات الغروب الجميلة وأصبحت لدينا كالم سافر بعيد، ثم خيم السكون وشمل المدينة كلها.

وكنت أشاهد منظر غروب الشمس من إحدى نوافذ بيتي الصغير في مكة. ولم ير الديك الذي كان يصيح طيلة النهار داعياً لا يقف صياحه، كأن عظمة هذا الغروب لم تؤثر في نفسه، ولكن الدجاج لاذت بالصمت وراحت تنساق أقفاصها استعداداً للنوم.

وكان يقع في طرف فناء البيت الصغير الذي أعد لضيافتنا قسم خاص بالحريم تجلس في إحدى غرفه سيدة وقور اسمها سنية، تقرأ القرآن على ضوء مصباح خافت اللون، على حين كانت ابنتها فاطمة النحيلة الحصر منصرقة إلى أعداد طعام العشاء لارساله إلينا مع إحدى العجائز. وحتى هذه العجوز الشمطاء كانت تتخذ كل الحيلة عند احضارها الطعام بحيث لا يظهر وجهها، وكانت تحمل الصينية على يديها ثم تدفعها بحذر على عتبة الغرفة وتنسل راجعة، فأقوم بدوري لأخذ الصينية بمجرد وضعها على العتبة. أما الطعام فهو لا يتخلو عادة من الأصناف العربية المشبعة بالتوابل

كانت هذه العجوز تحاول كما قلت أن تمنعني من رؤية وجهها، ولقد أفلحت في ذلك إلى حد كبير، فلم أر منها إلا ذلك الهيكل العظمي، ولم أسمع من حركتها إلا صوت ذلك القبقاب الخشبي الذي كنت أسمع طقطقته على الدرج

فلاستاذ لا يرى موسيقياً كالموصلى ولا كنهوفن. ولا شاعراً كشكسبير، ولا كالميتني. ولا كاتباً كعبد الحميد ولا كأمين المقفع ولا كما كولي. فيقول: لا نبوغ في هذه الأيام وينسى أن الذين يتحدث عنهم جميعاً طواهم الموت وأحاطهم القدم بجلاله، ومحا أسماء منافسيهم الذين كانوا يعيشون معهم وبقيت أسماؤهم وحدهم، وأن المعاصرين يعيشون معنا، ونحن نقرأ أسماء النوايع وأسماء العامة، أقصد العاديين من الكتاب والفنانين، ولكن غدا سيموت الجميع، والأجيال القادمة هي وحدها التي ستدون أسماء المتفوقين الذين عاشت بدائعهم، وخلدت مؤلفاتهم. وظهرت آثارهم، عظيمة ومؤثرة وجميلة وستقول هذه الأجيال كما يقول اليوم الأستاذ أحمد أمين إن جيلها يتخلو من النوايع وإن الأجيال السابقة هي عهد المتفوقين والمبرزين.

فقلنا مثل الذي يقف إلى جانب الجبل، لا يرى قمه، ولا سوافله، إنما يرى جسماً مسطحاً لا تضاريس فيه. فإذا بعد عنه ظهرت معالمه وبانت خطوطه واتضح له أنه عال في ناحية ومنخفض في ثانية، أو قل إن مثلنا مثل الوالد يعيش مع بنيه فلا يدري أنهم يزدادون طولاً مع مرور الزمن، فإذا غاب عنهم شهراً وعاد أدرك أن هذا أطول من ذاك، وأن أكبرهم أشد سمنة من أصغرهم، لأن طول النظر إلى الصورة لا يبرز معالمها.

المدارس انتشرت، والمعارف رخصت، ولكن النفس البشرية هي التي باستعدادها، سيقى النبوغ فيها استعداداً لا يضعفه نظام، ولا يقويه نظام، إنما يغير فيه قليلاً. لقد طرنا في السماء، وغصنا في الماء، ولكن لا يزال الواحد منا إذا ما خلا إلى نفسه في القمر، ثارت شجونته، وتحركت في عيونه شؤونه، تماماً كما يفعل ابن الصحراء وراكب الجمل.

وأحفادنا يقولون — حينما يقرأون مقالنا — إننا تعجلنا الزمن، فقلنا إنه عهدنا لا نبوغ فيه، ولأنهم سيرونه عهداً ككل العهود، فيه النوايع وفيه العاديين، فيه العالقة وفيه الأنزام.

فتحي رضوانه

بعد أن يكون قد اكتسب قوته بعرق جبينه فأعلينا إلا أن نوجه أنظارنا إلى ألوان الشمس العظيمة ساعة غروبها ، وتعلم منها عن كذب طرق التحول ونعد قبلاتها الحلوة التي تطبعها على سطح الأرض من نعم الطبيعة . أجل يتجتم علينا أن نبحت بدقة وحذر خشية أن تتخبط في ديجور الظلام كما يتخبط اللص في الخفاء

انه لأحاساس نبيل لو أتيح للانسان أن يكون كشجرة الأرض الباسقة ، تلك الشجرة المغروسة على أعالي القمم . تنقل عنها من حين إلى آخر على المروج الخضراء والكروم الزمردية ، ولكن هذه الشجرة - وهي سيدة الأشجار - ستبقى على الدوام مهددة بميلها للسقوط في وسط الأدغال ، حيث الحركة والحياة بين الحشرات والأزهار وبين القطعان في مراعيها ، وحيث الأطفال يضحكون وحيث تستغرق السعادة في سباتها العميق هذه الأفكار مرت سراعاً بمخيلتي ، عند ما كنت أنظر صفوف نوافذ منازل مكة التي تطل على هذا الوادي الضيق ، ثم وقع نظري على المآذن الشاحخة وقد فارقتها أشعة الشمس الذهبية ، كأنها تتادبنى أن أقرب منها . وهذه الشمس التي غربت هي بغير نزاع ذلك الصاحب الأمين للأجنبي ، فشمس الصباح وشمس الظهيرة بهما قوة واقتدار مثل قوة الشاب العاشق ، ولكنها على الدوام واحدة لا تتغير ، أي أنها لا لون لها ، وتكاد تكون في الغالب وحشية شاحبة ومزعجة . انها لا شيء سوى القوة الغشوم ، فهي كالألة ، يد أنه ينقصها الاحساس ، والصوت ، والضمير ، والشوق . فهذه الشمس التي تغرب ، ليست سوى حب الرجل البالغ ، فالضمير ، والمعرفة ، والفرح ، والأحزان قد تغلبت عليها مئات المرات ، وأخضعها لسلطانها ، وظلت الآن في كفاحها تغالبها ، وستظل في هذا الكفاح الدائم راضية بالحياة ، بمنزلة مع الموت

هنا سمعت المؤذن يدعو المؤمنين إلى الصلاة ، وهنا يجب علينا أن نولى وجوهنا شطر الكعبة المقدسة لنسجد للحق القيوم ، مالك الملك ، الذي خلقنا فسوانا ، وفي قدرته الحياة والموت ، صاحب الأمر الذي إذا أراد شيئاً فأنما يقول

حين صمودها وحين أوتبها إلى الحريم . فالمرأة في كل زمان ومكان ، هي المرأة ، أو ذلك اللغز الغامض ، في الغرب وفي الشرق على السواء ، فإذا ما دفعني حب الاستطلاع لرؤية فاطمة الجميلة ، ولبس هذا بمستغرب من رجل مثلي ، أخذت أنظر إليها خلسة من إحدى الثغرات ، ويلوح لي أن الفتاة الصغيرة كانت تشعر أيضاً بأن العيون موجهة إليها من خصاص الشباب فكانت تتخذ كل حيلة وحذر فتقفل نوافذها وترخي السدول عليها حتى تمنع عنها تلك النظرات التي تخافها وتخشاها ، ولكن فاتها أن في الفضاء تياراً خفياً ينشر جاذبية العواطف ، وينبعث من شعاعه شرارة سرعان ما تكون سبباً في تأجج تلك النيران التي تضيء الحياة بلهبها . هذه التيارات خفيفة في الواقع لأنه حين اشتعلها تزيد أوار الحب في القلوب البشرية ، فتوقظ فيها وسائل الحياة ووسائل الموت دون تفرقة بينهما . أما أنا فلا أخفي عنك أنني ارتعدت من هول ذلك التيار ، فرميت رأسي إلى الوراء حياء مخافة أن يقع نظر الفتاة على وأنا أتجسس عليها عن كذب ، ومخافة العار والفضيحة ولا سيما وأنا غريب عن البلاد

ففي أرض الحجاز ، تلك البلاد التي لا يوجد فيها من الجنس الأوربي غير شخصي الضعيف ، مرتدياً تلك الملابس الأفريقية ، والذي تخرج من فمه رطانة لا يفهمها غيره ، كنت مضطراً بحكم البيئة التي تربيت فيها أن أبحث وأدقق في كل ما يقع نظري عليه ، ولكن بروح أجنبية . فكان شأني شأن اللص الذي يتسلل إلى بيت تحت جنح الظلام ، في وقت هجوم سكانه ، ثم يخشى أن يقوده سوء الطالع فتصدم رجله قطعة من الأثاث ، أو يفتح باباً خلسة ، يد مرتجفة ، بل قد تراه يتلفت ذات اليمين وذات اليسار خائفاً وجلاً ، فإذا صادف أن شعوره الاجرامى لم ينبض في صدره ، فحينذاك يكاد يطير فرحاً لاقتناصه فريسته ، وإذا لم يجد وازعاً من ضميره فانه يفخر بانتصاره على ضحيته . ومن الأسف أن هذا الشعور الاجرامى يلزمنا من المهد إلى اللحد ، فأمامنا الرجل العادي الذي يهرع إلى فراشه ليلا على حين تقضيه نحن في مسامرة النجوم . وفي الوقت الذي يعود هرقه إلى بيته

له كن فيكون . فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء . وإليه ترجعون ، إنا ندعوه ونبتل إليه في قعودنا وقيامنا ، إذ ليس أفضل من الابتال إلى قدرته ، تلك القدرة الدائمة الأبدية ، فطوبى لمن يخشون ربهم . نعم طوبى لهم وحسن مآب
خيم الظلام المخيف على جميع أطراف مكة ، وفي هذه البقعة الصحراوية الجرداء نرى بيت الله ، ذلك البيت العتيق قبلة الشعوب الإسلامية ، الذين ينسون حطام الدنيا ومتاعها ويطأون المادة بأقدامهم ويستعبدون عنها بالآيمان المطلق ، وهو لعمري آمن من كل شيء في الوجود ، فيتخلصون من شرور الجسد ويصعدون بأرواحهم إلى أعلى عليين . وما أحلى وأطيب سماعك آذان المغرب في بلاد العرب ، أو على الأقل ما وجدت شيئاً أروع منه ، خصوصاً وقد قدمت الى هذه الأرض المقدسة لا تطهر من أدراكي وأبني الثواب والمغفرة ، وسيعلم الانسان عند ما تصعد الروح إلى بارئها ، وعندما تنهار أعمال الرجال ، فإنا بفطرتنا نلجأ إلى حماية الرب العظيم ، حيث الماء والهواء يحركان الصخر ؛ ولكن على الرغم من ذلك نحاول أن ننشل أنفسنا من وهدة القنوط بقوة الايمان ، تلك القوة التي تخفف عنا عذاب الضمير وتهدى من ثورة عواطفنا الجامحة ، فطمئن قلوبنا بذكر الله وتجري على شفاهنا آيات الكتاب الكريم

أليست كلمات الله العذبة الفصيحة قادرة على أن ترشد الانسان مهما كان زائغ العقيدة إلى الصراط المستقيم ؟
ذلك الصراط الذي وعد الله به عباده المتقين فيرون ضرو الشمس الساطعة في كل جزء من أجزاء الحياة ، وعندما تشعر النفس بالكآبة فلا عزاء لها إلا أن تبسم نحو الخالق العظيم لأن الله سبحانه وتعالى يحب من عباده التوسل والضراعة إليه ، والكل يعترفون من فيض نعمائه لأنه رحيم رؤوف بعباده . على ضوء هذه العقيدة اضطجعت في غرفتي وأغمضت عيني فشعرت بازدياد ضربات قلبي ثم ألفت نفسي أتلو آية الكرسي ، وهناك شعرت بدمعتين حارتي تنحدران على خدي . ثم اسدل الليل ستاره وخيم السكون على أنحاء المدينة

وبدأ القوم يوقدون مصابيحهم الزيتية ، وحضرت الخادم تحمل طعام العشاء فرعان ما شعرت بأني أهبط من طبقات السمو والتفكير في صفات الخالق إلى حضيض الأرض ، وبعد أن تناولت عشاءً نهضت فارتديت سروالي وعصبت رأسي بعصبة أحكمت فوقها عقلا ، ثم ممت شطرجبل أبي قيس لزيارة صديقي الأستاذ عبد الله رافع الذي دعاني مع آخرين لقضاء ليلة ساهرة في بيته ، فاخرقت في طريق سوق المدينة ورأيت الشوارع لا تزال مكتظة بالزوار وحجاج البيت الحرام . وكانت دار صديقي حافلة بالضيوف فما كدت أغشى الصالة الكبرى حتى أحسست أني في عزلة عن الضوضاء ، وشعرت بالهدوء الشامل والطمأنينة المريحة

وأستطيع أن أقول إن جماعة الوهابيين في بلاد العرب يحرمون بتأناً الاجتماع في الولائم وغيرها ، وحجتهم في ذلك أنها مخالفة لنصوص الشريعة والسنة ، ويقولون إن في التقشف الغذاء النفساني لكل طالب ، ويعززون رأيهم بأن الانسان ما خلق إلا للعبادة والتقوى ، وليس له أن يتوغل في إعطاء النفس شهواتها لأن الحياة في ذاتها كلها تعب وقصيرة ؛ وليس الغرض منها أن يتمتع الناس وينغمسون في شهواتهم ، بيد أني أرى أنهم يبالغون في هذا التحريم لأن الله حين نظر إلى التراب الذي خلق منه آدم والذي تكون منه العالم ، سقطت من عينه دمة ، وهذه الدمة كانت تحمل شطراً من القلب ومن طبيعته أن يوجد فيه الحب والاحزان وغيرها من الصفات الكامنة الآن في نفوسنا .

(البقية في العدد القادم)

السيد عمر مكرم !
انتظر مقالا في العدد القادم